مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 9 / العدد: 02 (2021)، ص662- 683

غاستون باشلار بين الفينومينولوجيا والتحليل النفسي.

Gaston Bachelard between phenomenology and psychoanalysis

حاج بن دحمان[1] بن زينب شريف[2]

[1]جامعة أحمد زبانة غليزان (الجزائر)، bendahmane.hadj@gmail.com

[2]جامعة الدكتور يحي فارس المدية، cherifbenzineb@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/02 تاريخ القبول: 2021/09/05 تاريخ النشر: 2021/10/07

ملخص:

يتمحور مقالنا حول أهم فلسفات عصر الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار، وهما ظواهرية أدموند هوسرل والتحليل النفسي لسيجموند فرويد، ونبين فيه كيف استفاد من هذين التيارين الفلسفيين في بناء نسقه الفلسفي القائم على التحليل والنقد وعلى الابستمولوجيا.

كلمات مفتاحية: الفينومينولوجيا.، القصدية.، التحليل النفسي.، اللاشعور.، القطيعة.

Abstract:

Our article revolves around the most important philosophies of the era of the French philosopher Gaston Bachelard, namely the phenomenology of Edmund Husserl and the psychoanalysis of Sigmund Freud, and we show in it how he benefited from these two philosophical currents in building his philosophical system based on analysis, criticism and epistemology

Keywords: phenomenology; intentionality; psychoanalysis; unconsciousness; estrangement.

المؤلف المرسل: حاج بن دحمان

1. مقدمة:

إنَّ محاولة فهم المعنى العميق للمشروع الباشلاري الذي بدأه بالدراسات الإبستيمولوجية للعلم وتاريخيته، وعقباته المعرفية، ليختمه بالدراسات الأدبية والجمالية، وخاصة الخيال الشعري، الذي بقي حتى اللحظات الأخيرة من حياته، مغرم بهذا الصنف المعرفي الإنساني، هو بالصعوبة بمكان بالنظر إلى المستوى العميق الذي بلغته أفكار هذا العالم الفيلسوف، الذي ظل طوال حياته فاتحاً سجالاً مع الفلاسفة والمفكرين؛ ناقداً تارة وموظفاً تارة أخرى لفلسفة أو منهج فكري، وهذا ما نلاحظه من خلال توظيفه في فلسفته الفينومينولوجيا الهوسرلية والتحليل النفسي الفرويدي.

2. باشلار والفينومينولوجيا.

إنَّ الفكرة الأساسية التي تتمحور حولها الظاهراتية Phénoménologie، التي أوجدها إدموند هوسرل Edmund Husserl (1859- 1938) هي قصدية الوعي، أيَّ أنَّ الوعي يقصد ويتجه دائما إلى موضوع بعينه. ولما كانت الفينومينولوجيا مشتقة من الكلمة ظاهرة Phénomène فيعرفها لالاند في معجمه على أنَّها «دراسة وصفية لمجموعة ظواهر كما تتجلى في الزمان أو المكان، بالتعارض إمَّا مع القوانين المجردة والثابتة لهذه الظواهر، وإمَّا مع الحقائق المتعالية التي يمكن أن تكون من تجلياتها؛ وإمَّا مع النقد المعياري لمشروعيتها» (أندريه، 2001، صفحة 973). وقبل البدء في طرح التوظيف الباشلاري لهذا المنهج، كان لابد من عرض تاريخي لهذا المفهوم.

يعتبر الفيلسوف الألماني جوهان هانوتشر لمبرت J.H.Lembert الذي عاصره كانط، السبَّاق لتوظيف نظام سماه الفينومينولوجيا في كتابه الموسوم بـ "الأرجانون الجديدNeues Organon" 1764، وكلمة فينومينولوجيا عند لمبرت تعني المظاهر الخادعة في الظواهر الإنسانية أو فينومينولوجيا الوهم (سلامة،

2007، صفحة 09). أمَّا كانط الذي عاصر لمبرت فقد فرق بين ظاهر الأشياء التي تبدو لنا وبين الأشياء في ذاتها ويؤكد كانط أننا لا نعرف إلاَّ ما يبدو لنا. أما فريدريك هيغل أعطى معنى أخر لمصطلح الظاهرة في كتابه "فينومينولوجيا الروح"، الذي يعتبر مدخل لفلسفته بصفة عامة، حيث عرض فيه مراحل تطور الروح وتجليها في التاريخ، مع عرض لمراحل الوعي الذي يتجه نحو المعرفة المطلقة، وهذا هو المبلغ النهائي للروح المطلق. أمَّا السير وليام هاملتون وظف مفهوم الظاهرة بالمعنى الوصفي للعقل وهذا في محاضراته عن الميتافيزيقا 1858. أمَّا إدوارد فون هارتمان E.V.Hartman (1842-1906) استخدم نفس المعنى في كتابه "فينومينولوجيا الوعي الخلقي" 1878 حيث كان يهدف من خلال كتابه تقديم وصف عن الوعي. ولكن مفهوم الظاهرة عند رائد البراغماتية الأمريكي شارل سندرس بيرس C.S.Pierce هو الإدراك الخادع أو الخيالات والأحلام (سلامة، 2007، صفحة 10). وإذا كان هوسرل الجذع الكبر الذي تفرع عنه العديد من التلاميذ الذين أورق على أيديهم هذا المنهج الفلسفي، فلا أحد ينكر الدور الكبير الذي لعبه فرانس برينتانو.

ولكن بالرغم من كل هذه البدايات في توظيف مفهوم الظاهراتية، إلاَّ أن هوسرل هو الذي قدم للفكر الإنساني المفهوم الأوسع لهذا المصطلح. ولقد مر التصور الهوسرلي للفينومينولوجيا بمراحل ثلاث:

- مرحلة الاهتمام بالرياضيات، والتفسير النفسي للمنطق.
- مرحلة "علم النفس الوصفي" حيث أخذت الفينومينولوجيا في هذه المرحلة مجالاً محايداً.
- مرحلة "الفينومينولوجيا الترنسندنتالية"، حيث أصبحت الفينومينولوجيا الفلسفة الأولى، حيث تكون كل العلوم متأصلة في الخبرة

الخالصة، ولا يقصد هوسرل العلوم الطبيعية والمنطق فقط، بل حتى العلوم الإنسانية (سلامة، 2007، صفحة 11).

لقد تطورت أفكار هوسرل الفينومنولوجية إلى أفكار في النقد الأدبي خاصة على يد غاستون باشلار وموريس ميرلوبونتي Maurice Merleau-Ponty ورومان إنغاردنRoman Ingarden بالإضافة إلى إسهامات النظرية والتطبيقية لكل من بييرريشارPierre Richard وجان روسيه Jean Rousset وريشارد جورج Richard Rogers (رويلي و سعد ، 2002، صفحة 321).

لم يكن باشلار بعيداً عن هذا المنهج الفلسفي الذي ذاع صيته في أوربا والعالم الجديد، بل كان هذا المنهج حاضراً في بواكر مؤلفاته العلمية، حيث نجده في كتابه "التعددية المترابطة في الكيمياء الحديثة "يؤكد على ضرورة توظيف المنهج الفينومينولوجي في دراسة الظواهر العلمية، حتى نتمكن من النفاذ لعمقها وفهم ماهيتها حيث أنَّه «بدون الفينومينولوجيا، لا نستطيع فهم الظاهرة؛ إذ أنَّه عن طريقها ستصبح الظاهرة، بأسلوب ما، أكثر عمقاً» (G.Bachelard, 1932, p. 50) وهذا التركيز على الظاهرة أو ما يظهر أمام الوعي، فهذا الأخير يقصد الظاهرة ويتجه إليها مباشرة، وهو لا يقصد أي شيء آخر إلا ذاته، وعليه لا يكون الوعي في الأصل إلا وعياً بعالم وموضوعات، حيث يتجه إلى موضوعه وللعالم من خلال الأفعال القصدية ومن خلال هذه العملية التبادلية للإحالة والقصدية التي تحدث بين الوعي وموضوعه، يحدث تدمير لذلك التميز أو التفرقة بين الذات والموضوع أو بين الواقعي والمثالي (الإمام، 2010، صفحة 120). يوضح لنا باشلار الغرض من اختياره للمنهج الظاهراتي هو أمله في تحليل الصور المحبوبة بإخلاص، وكون «علم الظاهراتية قادر على تناول الصورة الشاعرية في كينونتها الخاصة ،منقطعة عن كينونة سابقة» (باشلار، 1991، صفحة 07) ، كما أن المنهج الظاهراتي يساعد على تحليل الصور الشعرية المحبوبة بإخلاص، من زاوية مغايرة عن التحليل

النفسي الفرويدي، فهذه الصور تتميز بكينونتها الأصيلة، وبإنتاجيتها النفسانية، إنتاجية تتمثل في التخيل (باشلار، 1991، صفحة 06).

انطلق باشلار من الفينومينولوجيا كمنهج ينظر من خلاله إلى انطلاقة الصورة الشعرية داخل الوعي الفردي، دون تشيء هذه الصورة بل النظر إليها في صورتها الحقيقية ومعطياتها الذاتية دون تجريدها عن أنيتها أو لحظية تشكلها. إن المنهج الفينومينولوجي، القائم على تعليق الظاهرة ووضعها بين قوسين، ثم إعادة بنائها عن طريق تحليلها كما هي معطاة للوعي، بحكم أنها تجربة شعورية خاضعة للتيار الزماني، كفيل بدراسة الظاهرة الشعرية، والكشف عن كنهها الجمالي.

لم يخضع باشلار لتلك المنظومة المفاهيمية الصارمة للفينومينولوجيا، بل كيَّف هذا المنهج مع العمل الأدبي الذي «يقوم على أفعال قصدية من قبل مؤلفه تجعل من الممكن للقارئ أن يعايشه بوعيه كقارئ. وتعني المعايشة هنا نوعاً من التداخل عبر التجربة القرائية بين المؤلف والقارئ» (رويلي و سعد ، 2002، صفحة 321)، فالإنتاج الأدبي لا يخلو من قصدية يرمي إليها الكاتب، فيفرض على القارئ معايشة هذه القصدية، والتفاعل معها، ما يولد رابطة بين المؤلف والقارئ. يكون الفعل القصدي محكوم بوعي، يدفعنا للنظر إليه «كعمل دينامي وحقيقة تبتغي إليها الذات شيئاً معيناً، يكون موضوع القصد وانتباهه، فتحدث "إحالة قصدية" متبادلة بين الوعي وموضوع الوعي، ذلك أنَّ الذات والموضوع، لا يمكن فصلهما تحليلياً» (بوخليط، 2012، صفحة 142).

ويقدم لنا فرنسوا بيير François Pire في كتابه "الخيال الشعري في أعمال غاستون باشلار"، المنهجية التي يعتمدها باشلار في دراسة الصورة الشعرية التي تختزل الأبعاد الأنطولوجية والرؤى الإنسانية، فالظاهرتية المنهجية الوحيدة التي تخولنا استعادة "ذاتية الصور"، كما تساعدنا على تناول قيمتها الجديدة (Pire, 1967, p. 22). فالفينومينولوجيا كانت الأرضية التي انطلق منها باشلار

لدراسة الصور الشعرية فبعد الانطلاقة الإبستيمولوجية المعتمدة على الموضوعية العلمية، يقف على عتبة الدراسات الشعرية مستخدماً المنهج الفينومينولوجي، ليؤسس لظاهرتية الخيال الشعري (Pire, 1967, p. 151).

بالرغم من أنَّ هذا المنهج يتميز بتلك الصرامة، والثقل المفاهيمي، إلاَّ أنَّ باشلار يهدف من خلاله، الحفاظ على حيوية الصورة الشعرية، ومقدرتها على إعادة إنتاج نفسها بنفسها، وضمان استمراريتها، وهذا لا يتأتى إلاَّ من خلال اللغة الحوارية بينها وبين المتلقي، فالوعي الفردي يبث فيها الحياة وهذا لأنَّ «الاقتضاء الظاهراتي إزاء الصورة الشاعرية سهل: يجب التشديد على الفضائل الأصلية لهذه الصور، إدراك كينونة أصالتها ذاتها والإفادة من إنتاجيتها النفسانية العظيمة، إنتاجية التخيُّل» (باشلار، 1991، صفحة 06)، فالموقف الذي يتخذه القارئ إزاء الصورة الشعرية، وتلقي وعيه لقصدية كينونتها، يولد موقف جديد، يلغي من خلاله كل الصور القديمة، أو يقيم تلك القطيعة مع الاهتمامات القديمة ذات الثقافة النفسانية، وهكذا «فإنَّ المنهج الظاهراتي يفرض علينا إبراز كل الوعي الذي هو سبب أدنى تقلب في الصورة، ذلك انه لا يمكننا قراءة الشعر فيما نفكر بشي آخر. فما كان إن تتجدد صورة شاعرية، في احد خطوطها، حتى تظهر سذاجة أولية... المتيقظة دوماً، هي التي تقدم لنا دائما الملقاة الصافية للقصائد الشعرية» (باشلار، 1991، صفحة 07).

إن الإنسانَّ العادي يختلف عن الظاهراتي، فإذا كان الأول لا يتخطى سذاجته اتجاه الصور الشعرية، فإن الأخير، يقف عند مطلع الصورة، كي يتماهى مع إيحاءاتها، بل يتعدى إلى تقمص شخصية الشاعر نفسه، والغوص إلى مكنوناته، وهذا لكون الصورة الشعرية تمده بالقدرة على الانتقال من الحس الشعري إلى الوعي الإبداعي وهذا «بإعادة تخيل الصورة المعطاة من قبل الشاعر، بالتموضع عند أصل الصورة. ثم يأخذ هذا الأصل باعتباره الصورة ذاتها. إنه،

إذن متيقن وهو يسعى إلى منطلق الصورة، حلوله في وجودها ذاته» (Pire, 1967, p. 172)، فالمنهج الفينومينولوجي يضعنا داخل عملية اتصال مع الوعي المبدع للشاعر. كما يفرض علينا هذا المنهج ضرورة العودة الدائمة إلى ذواتنا وبذل جهد استيضاحي في عملية الوعي (باشلار، 1991، صفحة 05). ولا يكون الفضل للفينومينولوجي على الشاعر فقط، من خلال الاتصال مع الوعي المبدع، فقد يحدث ارتداد في وعي الظاهراتي، من خلال إيقاظ وعيه من خلال ألاف الصور التي تنام في الكتب، فهو ينبهر أمام الصورة الشاعرية (باشلار، 1991، صفحة 10). يقول باشلار: «إنَّ الصورة الشعرية تضيء الضمير لدرجة أنَّه من العبث أن نبحث لها عن جذور غائرة في أعماق اللاشعور، أو على الأقل تقوم الفينومينولوجيا على التقاط الصورة الشعرية في مستوى كيانها ذاته من حيث ينفصم عن كيانها السابق، وعلى اعتبارها كسباً تعبيرياً ايجابيا للكلام، ونحن لو استمعنا إلى المحلل النفسي لبلغ بنا الحال إلى تعريف الشعر بأنه لبس كلامي كبير» (باشلار، 1991، صفحة 16).

تدفعنا الظاهراتية إلى اقتسام اللحظة الإبداعية، وهذا من أجل منح الصورة الشعرية الفرادة التي تميزها وأصالتها، فهي حمالة روح الشاعر، ومن خلال الوعي نفرج عن هذه الروح، المكبوتة، وهذا ما يميز الظاهراتي عن عالم النفس، فهذا الأخير لا يخرج عن إطار تقديم وثائق عن هذه الظاهرة، أمَّا الفينومينولوجي يقوم بوضع هذه الوثائق في ميزان الفهم والتفسير والوعي بها، وهذا ما يحرر روح الشاعر المبثوثة بين طيات صورته الشاعرية. إنَّ الهدف من التوظيف الباشلاري للفينومينولوجيا هو جعل عملية الوعي حاضرة، وكل وعي هو عملية نمو لوعي آخر، و«الوعي هو معاصر لصيرورة نفسية نشيطة، صيرورة تنشر عافيتها في كل الأوالية النفسانية. والوعي، بذاته، هو عمل، العمل الإنساني» (باشلار، 1991، صفحة 08).

يركز باشلار على مفهوم الوعي في نظريته حول الخيال، وهو يولي اهتماماً كبيراً لوصف الموضوع المعطى كما يحدث في خبرة الوعي، متجاوزاً بذلك ثنائية الذات والموضوع، وعلى نحو يكون الوعي مرتبطاً بموضوعه، عن طريق الخبرة القصدية، فالفهم الذي يكونه القارئ عن الموضوع المعطى، يتم تأسيسه في وعي القارئ في حد ذاته، وبهذا يستطيع تجاوز المعطيات الحسية المباشرة، حيث يعبر باشلار في كتابه "العقلانية التطبيقية" عن إمكانية أن يكون العقل وعياً صرفاً بقصديته قائلاً: «في الحالة الأولى يذهب التأكيد فوراً للكينونة، وفي الحالة الثانية، يبقى العقل على نحو مفيد في خط المعرفة، ويتأسس ببساطة كوعي لقبليات المعرفة، بعد إجراء كل حساب... ذلك أنَّه من أجل الحصول على يقينيات كينونية، لا بد من اجتياز يقينيات بشأن الصيرورة. فالذات الماضية في التعلُّم، تسيطر دائما على الذات المعلَّمة» (باشلار، العقلانية التطبيقية، 1984، صفحة 78)، ويؤكد باشلار من قوله هذا، على ضرورة وقوف الذات العارفة أمام الموضوع مراد معرفته وفحصه أمام الوعي، مع إلزامية التجرد من الأحكام القبلية السابقة، والتحرر من الأحكام الوجودية التي تربط الموضوع بذاته. فالموضوع المعطى في الواقع، الذي تتدخل الذات الواعية في تأسيسه، لا نستطيع أن ننكر وجوده الموضوعي، أو بمعنى آخر للذات الواعية لها وجودها الخاص بها، كما للموضوع وجوده الخاص به.

لم يبتعد باشلار كثيراً عن المنهجية الفينومينولوجية، بل نجده يوظف منهجية التعليق "الإبوخية" Épochè، فهذا التعليق المنهجي، على معتقدات الحس المشترك، الخاصة بالواقع، تمثل في حد ذاتها نوع من الانفصال عن هذا الواقع الحسي المباشر، ومن خلال هذه العملية الانفصالية، يخرج الوعي من كونه مجرد وعي عقلاني، إلى كونه وعي مبدع للواقع المعاش حيث «يبدأ الفكر العلمي المعاصر بفصل جوهري une épochè، بوضع الواقع بين مزدوجتين، ويمكن القول في

صورة مختلفة قليلاً لكنها تبدو لنا صورة موحية» (باشلار، فلسفة الرفض مبحث فلسفي في العقل العلمي الجديد، 1985، صفحة 35)، ويوظف باشلار المنهج الفينومينولوجي في دراسة الظاهرة الشعرية بالخصوص، ويقدم باشلار لمجموعة من الإيجابيات للمنهج الفينومينولوجي ونورد بعضها:

- المنهج الفينومينولوجي قادر على التواصل مع الوعي المبدع عند الشاعر.
- يشدد المنهج الفينومينولوجي على أصالة الصورة الشعرية وفرادتها، والاستفادة من إنتاجيتها النفسية.
- مع الفينومينولوجيا نستطيع تجاوز منطق التفضيلات، الذي يحول الذوق الأدبي إلى عادات، ومن نستطيع من خلالها-الفينومينولوجيا-الاحتفاء بالصور الطازجة التي يقدمها الشاعر.
- تبين الفينومينولوجيا بوضوح مفهومي الحلم وحلم اليقظة، وهذا بالفصل بين حضور الوعي (بوخليط، 2012، صفحة 152)، ففي الحلم الليلي نكون بلا عي، أما حلم اليقظة النهاري نستحضر الوعي وفي هذا يقول باشلار: «فحين نتبع منحدر التأملات الشاردة–منحدر في هبوط دائم- يسترخي الوعي ويتشتت وتاليا يتدجج، وإذن نحلم لا يوجد أي وقت للعمل الظاهراتي» (باشلار، 1991، صفحة 08).

3. باشلار والتحليل النفسي.

يعتبر التحليل النفسي من بين ركائز المشروع الباشلاري الابستيمولوجي، حيث نجد حضور هذا الصنف في شتى مؤلفاته من علمية أو أدبية، خاصة في كتابه (النار في التحليل النفسي) وتكوين العقل العلمي.

لقد كانت المقالات المنشورة في (المجلة الفرنسية الجديدة) Nouvelle Reue française الخاصة بالتحليل النفسي، بمثابة النافذة التي أطل منها باشلار على التحليل النفسي، متأثراً بالتحليل النفسي الفرويدي، وفكرة اللاشعور

الجمعي التي قال بها كارل جوستاف يونغ Carl Gustav Jung (1875-1961). يعتبر سيغموند فرويد Sigmund Freud (1856-1939) واضع أسس التحليل النفسي، ورافع الحجب عن أسرار الحقائق النفسية، وتوجيه الدراسات إلى الحياة اللاشعورية وتوضيح أهميتها في فهم السلوك الإنساني.

يعتبر اللاشعور عند فرويد المنطقة العميقة التي تحوي جملة الرغبات المقهورة، التي لم يقدر الشخص تحقيقها «الشعور الذي تحتجز في أعماقه المكبوتات بعيداً عن التصور وعن الفعل معاً، عن ما قبل الشعور الذي تترسب فيه الخواطر الخالية من الأهمية والتي لا بأس من ورودها في نظام التصور أو الوهم... ولكنها ممنوعة على كل حال من الدخول في مجال السلوك الحركي» (فرويد س.، 1962، صفحة 186)، فهذه الرغبات إذا كان الشخص لا يستطيع تحقيقها في أرض الواقع، سيجد في أحلام النوم واليقظة المسرح الذي تظهر من خلاله. ويتولد عن هذا القمع أو الكبت القهري لهذه الرغبات مجموعة من العقد، التي ينجر عنها أمراض نفسية عدة، تكون مرحلة الطفولة المبكرة المنطلق الذي تكونت منه. وبينت الأعمال التي قام بها فرويد في تحليل بعض النساء المصابات بالهستيريا، أنهن تعرضن للاغتصاب في طفولتهن المبكرة أو لمحاولات خاصة من طرف محارمهن، ولهذا فالشعور ليس هو أساس الحياة النفسية كما يشاع بل هناك الجانب اللاشعوري مستودع المكبوتات، وينقسم اللاشعور إلى «اللاشعور الذي يكون كامناً ولكنه يستطيع أن يصبح شعورياً واللاشعور المكبوت الذي لا يستطيع بذاته وبدون كثير من العناء أن يصبح شعورياً» (فرويد س.، 1982، صفحة 28).

إذا كان فرويد حصر اللاشعور في الشخص المريض، فإن يونغ كان له رأي مخالف للتقسيم الفرويدي لمكونات النفس. حيث يقسم يونغ هذه المكونات إلى شعور شخصي conscience personnel، لاشعور شخصي inconscience

personnel ولاشعور جمعي inconscience collective، وأساس الحياة النفسية عند يونغ هو اللاشعور الجمعي، حيث أن اللاشعور ليست من مكتسبات الفرد فقط، بل يرجع إلى مكتسبات وراثية من بيئته، وإذا كان اللاشعور الفردي مجموع عقد ومكبوتات، فإنَّ اللاشعور الجمعي، عبارة عن نماذج بدائي (ك، د ت، صفحة 77)، والغريزة تمثل تلك الطرق البدائية الكامنة في العقل، أما النماذج النفسية، فهي مجموع الطرق الأولية، حيث أن هذا الموروث البدائي قد يظهر في تصرفات منفردة عند أناس حتى وإن كانوا متحضرين، فالسلوك الحضاري المكتسب مهما سيطر على الفرد، قد تنفلت سلوكات بدائية من ساحة اللاشعور لتظهر في الشعور، وما هي في حقيقة الأمر إلا «محتويات نفسية تقع خارج رقابة العقل الواعي، انشطرت عن الواعية وشكلت لنفسها وجوداً مستقلاً في الخافية، وهي مستعدة دائماً لأن تؤازر آو تعوق مقاصد الواعية» (ك ي.، د ت، صفحة 101).

وهذا النوع من اللاشعور الجمعي، ينطوي على خاصية التجاوز Transcendance التي تتكون من خلال عملية التكوين النفسي للفرد، وبناء شخصيته المستقلة، فالأحلام عند يونغ، ليست مجرد أو هام أو خيالات، بل هي أكثر من ذلك، هي نوع من التمثل لتطورات لا واعية، تمثل يفتح للنفس أبواب النضج وتكوين شخصية الفرد، وإنضاجها من خلال تجاوز ذلك الطابع غير المتسق لبعض العلاقات الشخصية (Jung, 1964, p. 40). إن العملية التجاوزية التي تحدث من الفرد إلى الأشخاص أو من الفردي إلى الجمعي، يصل اللاشعور إلى صور قديمة بدائية جمعية، قد تكونت من قبل. يميز يونغ بين صنفين من طبقات اللاشعور «طبقة شخصية تصل إلى الوعي وترقى إلى الإدراك عن طريق مجهود الذات، وطبقة جمعية تقدم للأولى رصيداً من الصور الأولية وذخيرة من النماذج الخيالية الكامنة التي لا تعتبر في نظر يونغ مجرد تصورات

موروثة فحسب، بل أبنية ومقولات وراثية تحكم حركة الحياة النفسية ذاتها» (الكردي، 1998، صفحة 53).

تركت الدراسات النفسية التي قدمها فرويد، في تحليل السلوك البشري، الأثر البليغ في مناحي الفكر الفلسفي الغربي، وهذا بربطه ذلك الجسر التفاعلي بين الدوافع والغرائز الإنسانية، بجعله مظاهر السلوك رمزاً للرغبات المكبوتة، فالشاعر أو الفنان عند فرويد يشبه الحالم والمريض عصابياً فكلاهما يستمد موضوعاته من عالم اللاشعور (عباس، 1996، صفحة 65).

إذا كان فرويد أعلى من أهمية اللاشعور الفردي في البنية النفسية للإنسان، وتحليلاته للشخصيات العصابية، فإن يونغ وظف هذا التحليل على ضوء النفسية الجماعية. استلهم باشلار هذا المفهوم من يونغ، ولكن ليس على الإنسان المريض بل على الإنسان السوي، وبعد ذلك على عناصر الطبيعة، أي أن باشلار انتقل إلي تحليل المادة، وهذا ما أحدثه كتابه "النار في التحليل النفسي" La Psychanalyse du Feu من دهشة في أوساط النخب العلمية والأكاديمية في فرنسا، لكونهم عهدوا باشلار، فيلسوف العلم والمخابر، كما أنَّ التحليل النفسي الباشلاري يختلف عن علم النفس الكلاسيكي، فإذا كان هذا الأخير يتجه مباشرة لدراسة الظاهرة المرضية، فإنَّ التحليل الباشلاري يخضع النظرية العلمية أو المفهوم العلمي للدراسة والتحليل دون شخصية العالم. لهذا نجد التحليل الباشلاري ممزوج الفينومينولوجيا والإبستيمولوجيا.

لا يولي باشلار اهتماماً كبيراً للتحليل النفسي الفرويدي، فهذا الصنف من التحليل لا يفي بالغرض في تحليل الشعر والخيال، والتحليل الذي يوظفه باشلار هو التحليل الذي يقوم على مفهوم ما قبل الشعورLe Préconscient (الكردي، 1998، صفحة 51)، وليس في اللاشعور في حد ذاته، لهذا يضع لها منطقة وسطى بين الشعور واللاشعور.

لهذا فباشلار لا يقر بتفسيرات اللاشعور التي ينظر إليها مجرد أعراض مرضية يقول في هذا الصدد: «إن من حسنات التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية الذي نقدمه... أنَّه درس لمنطقة أقل عمقاً من المنطقة التي تبسط فيها الغرائز البدائية، ولأنَّها متوسطة، كان لها فعل المعين للفكر الواضح وللفكر العلمي» (باشلار، النار في التحليل النفسي، 1984، صفحة 15).

يرى باشلار أن التحليل النفسي الكلاسيكي لم يهتم إلا بدراسة الأساطير، ومعتقدات المجتمعات القديمة، في حين أهمل أو تجاهل الثورات العلمية وما أفرزته من منظومة مفاهيم جديدة، بالتفسير العلمي الذي يقدمه التحليل الفرويدي لا يتناسب ولا يلائم تفسير الاكتشافات ما قبل التاريخ، فهذه مجرد عقلانية جافة، لا تصل لعمق الفهم السيكولوجي. فهذا الصنف من التحليل ما هو إلا تحليل مباشر، ويجب تغيره بتحليل مباشر يهتم باللاشعور في الشعور، وعن يبحث عن القيمة الذاتية في البداهة الموضوعية «وعن الهاجس في الخبرة، لا يمكن أن يدرس إلا ما هجس به، والعلم إنما يتكون بالهاجس أكثر مما يتكون بالخبرة، وإنما تعتمد الخبرة لتبديد ضباب الوهم. لا سيما وأن الفعل نفسه، الذي يصنع المادة نفسها لكي يعطي النتيجة الموضوعية نفسها، ليس له المنحى الذاتي نفسه في عقلين مختلفين كاختلاف عقل الإنسان البدائي عن عقل الإنسان الثقافي. فالفكر عن الإنسان البدائي هو هاجس مركز وعند الإنسان الثقافي هو فكر ممد» (باشلار، النار في التحليل النفسي، 1984، صفحة 25)، ولفهم سيكولوجية إنسان ما قبل التاريخ، لابد من قياس هذه النفسية وفق الشعوب البدائية القائمة، بتوظف الأنتربولوجيا، فالانطلاق من نتائج العلم المعاصر، وتتبع ردود أفعال الأشخاص غير العلميين، يمكننا من بلوغ الفكر الموضوعي في المرحلة ما قبل علمية أو ما قبل تاريخية.

لقد قام باشلار بإنتاج مفاهيم سيكولوجية خاصة به تختلف عن مفاهيم فرويد، منها العائق الإبستيمولوجي الذي يلعب دوراً إيجابياً في بلوغ الموضوعية بتجاوز هذه العقبات ، وإذا كان فرويد قد أوجد "عقدة أوديب" الغرائزية، فإن باشلار قدم لنا عقدة "بروميثيوس" Prometheus، فإذا كانت العقدة الأوديبية، عقدة مرضية تدميرية للذات، فإن عقدة بروميثيوس بخلاف ذلك، فهي تحتوي على «جميع الميول التي تدفعنا إلى المعرفة بمقدار أبائنا وأكثر منهم، بمقدار معلمينا وأكثر منهم» (باشلار، النار في التحليل النفسي، 1984، صفحة 15).

لهذا كان مفهوم العقدة Complexé عند باشلار يختلف عن مفهوم العقدة عند فرويد، فهي عند هذا الأخير لا تخرج عن كونها عصابية، أما عند باشلار يقترب مفهوم العقدة من تعريف يونغ ،فالعقدة عبارة عن سيل من العواطف والصور والأفكار غير الواضحة والتي تعيق الفكر النقدي من إحداث تغييرات تدفع لتطور المعرفة وبنائها.

إذا كان الإبداع الفني والعلمي عند فرويد، هو عملية تصعيد للمكبوتات الجنسية، المخزنة في سديم النفس البشرية، فهي ليست إلا عملية تصاعدية لرغبة محجوبة أو مقنعة، تكون بعملية لطيفة، ولكن عملية التصعيد Sublimation عند باشلار هي عملية فكرية تؤدي إلى تخليص الفكر العلمي من الصور القديمة غير الملائمة ومن التخيلات اللاعقلانية، فالفكر الإنساني تطور بمروره بالمراحل الثلاث: الفكر القبل علمي ومرحلة الفكر العلمي ومرحلة الفكر العلمي الجديد، فبعد العملية التجاوزية للعقبات الإبستيمولوجية، استطاع الإنسان أن يبني معرفة علمية موضوعية بعيدة عن الذاتية، لهذا يجب على العالم أن يمارس المراجعة النفسية لمعتقداته، للوقوف على تلك الأخطاء الذاتية التي تعرقل تقدم العلم وتقوم اعوجاجه ،كما أن هذه المراجعة النفسية ترفع عن العقل القيود الميثولوجية، وكل اعتراف بالخطأ هو قوة للعقل، بخلاف التشبث

بالخطأ والإصرار عليه و «أنَّ يقر المرء بخطئه، معناه أنه يقدم أجلى آيات الاحترام إلى نفاذ بصيرته» (باشلار، النار في التحليل النفسي، 1984، صفحة 92)، ويتميز التصعيد الباشلاري، كونه تصعيد جدلي فعوض الانطلاق من الذات لمعرفة الموضوع تكون المعرفة العلمية هي المعرفة الموضوعية لما هو ذاتي.

أمَّا بخصوص الكبت الذي يعتبره فرويد حالة مرضية فهو عند باشلار قد يكون ذو جانب إيجابي حيث أنَّ «الكبت ليس فعالية اعتيادية نافعة وحسب، بل هو فعالية مفرحة أيضا، لأنه ما من فكر علمي بلا كبت. وإن الكبت لقائم في أصل الفكر الإنتباهي، التأملي، المجرد» (باشلار، النار في التحليل النفسي، 1984، صفحة 92).

يرجع باشلار سبب تحجر الفكر العلمي وركوده، إلى قيم لا شعورية، أطلق عليها باشلار اسم العوائق الإبستيمولوجية، تتطلب إزالتها لفسح المجال للعلم كي يتطور، ويهدف التحليل النفسي الكشف عن هذه العوائق، وتجاوزها.

- **اللبيدو والمعرفة الموضوعية:**

اللبيدو libido لفظ تم تعريفه بواسطة فرويد على أنه القوة التي يتم بها تمثيل الغريزة الجنسية في العقل. وتبعاً لمفهوم فرويد، فإنَّ اللبيدو لا يقتصر على الجنس، بل يتعداه إلى مجالات أكبر مثل اللذة عموماً، حين وضع مبدأ اللذة الذي يعتمد على السعي إلى الحصول على اللذة، وتجنب الألم من خلال التحليل النفسي. إنَّ تفسير بعض المشكلات النفسية يعتمد على خلل اللبيدو، ويستخدم تعبير فقدان اللبيدو لفقدان الرغبة الجنسية بسبب حالة نفسية (الشربيني، د ت، صفحة 97).

كما أنَّ للبيدو تأثير كبير على الفكر، أكثر من الأفكار الواضحة التي تعتمد على الحدس الأولى، حيث يرى باشلار أنَّ الفكر القبل علمي والتقليدي مشحون بهذه الرغبات الجنسية، وهذا عائق كبير أمام المعرفة تطور الفكر العلمي. ولكن

فرويد عند تحليله لشخصية الفنان والمبدع يؤكد على أن هذه العقدة لها دور فعال في تفجير طاقات هذا الإنسان المرضي حيث يقول في هذا الصدد «أكرر مرة أخرى أن الفنان انطوائي من الناحية المبدئية، وأنَّه ليس بعيداً كل البعد عن العصاب، وتتملكه حاجات غريزية شديدة القوة، فهو يتمنى أن ينال الشرف والقوة والثراء والشهوة وحب النساء، ولكنه لا يملك الوسائل التي تحقق له إشباع هذه الحاجات، ونتيجة لهذا فإنه ينسحب من الواقع شأنه شأن أي إنسان آخر يعاني من عدم الإشباع ويحول كل اهتمامه ونشاطه الحيوي، كذلك إلى عالم خيالي يعبر عن الرغبة، وهو طريق قد يؤدي إلى العصاب» (ستور، 1996، صفحة 303).

ويضع فرويد نتيجة حتمية يصل إليها الفنان المبدع وهي العصاب، لأنه ينطلق من كتلة رغبات نفسية، بقدر ما تكشف الستار عن عبقرية وإبداع، بقدر ما تدفع بالمبدع إلى مصحات نفسية، أمَّا باشلار فله رأي مغاير بخصوص التحليل النفسي الكلاسيكي، الذي وجه اهتمامه للشخص المرضي وأهمل المعرفة الموضوعية (باشلار، تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، 1982، صفحة 147).

إنَّ الإنسان لما يولد يكون في وسطه الاجتماعي في حالة المتفرج، ثم مستكشف من خلال أسئلته العادية والمحرجة عن سر الولادة، وكيفية قدومه لهذا العالم، مما يدفع بالآباء الامتناع عن الإجابة، لدوافع اجتماعية أو أخلاقية حيث «إن سر التوالد الذي يعرفه الأهل ويخفونه –بمهارة، بسخرية أو بعدوانية، ضاحكين أو مزعجين – يجعل منهم مراجع فكرية عشوائية» (باشلار، تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، 1982، صفحة 148)، ممَّا يولد لدي الطفل الرغبة الملحة لإجابة عن هذه الأسئلة خاصة ما تعلق بالجنس والشهوانية حيث أن «الشهوانية تزداد ،مكراً بقدر ما يكون

استبعادها مبكراً، ويكون الكبت، في المهتم العلمية أكثر سهولة وضرورة في آن» (باشلار، تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، 1982، صفحة 148)، وهذا القمع أدى إلى بناء فكر قبل علمي ينشد التعميمات السريعة مما أسس لعقبات أمام حركية العلم وتطوره.

ينطلق باشلار من تفسير حدس النار في بناء المعرفة العلمية معتمداً على التحليل النفسي ولقد كانت النار من أكثر المواد دراسة، وتقديساً، مما لها من قدرة إحائية، فأغرت الإنسان البدائي بتقديسها، بل وعبادتها. في كتابه " التحليل النفسي للنار" و"تكوين العقل العلمي "نجد أنَّ باشلار يقدم لنا العديد من الأمثلة الجنسية للظواهر، في دراسته للعناصر الكوسمولوجية الأربعة ورمزيتها، من نار، وماء للرجل والمرأة، حيث يكون التفسير الجنسي للظواهر بمثابة تفريغ لشحنات عاطفية مكبوتة في اللاوعي الجمعي لا فردي فقط.

يرجع باشلار العوائق الإبستيمولوجية إلى مصادر جنسية، فالنار التي بدأ باشلار بدراستها وتحليلها كمادة خلاف ما كان شائعاً في التحليل النفسي الكلاسيكي، الذي يتجه لإنسان كموضوع للدراسة، أصبحت هذه النار جوهر الأشياء (العائق الجوهراني) أو الباطني الكامن في العديد من الأشياء، في الرجل والمرأة، في احتكاك المواد. والنار قد تهب الحياة بقدر ما تهب الموت فهي (عائق إحيائي)، ويكون لتعدد أوصافها (عائق لفظي)، أما شيوع هاجس النار عند الشعوب وخوفهم منها يعتبر عائق المعرفة بصفة عامة، فالمسافة التي يقيمها الفرد بينه وبين النار، تولد عقبات عدة أمام التطور العلمي.

- **الموضوعية والتحليل النفسي.**

إنَّ التطور الذي شهده الفكر العلمي المعاصر من تطور متسارع للمفاهيم ونتائج العلم، بتجاوزه للعديد من العوائق الإبستيمولوجية، وتصحيحه للكثير من الأخطار المعرفية والنظرية العلمية التي كانت لردح من الزمن، حقائق وثوابت لا

تتغير، هذا ما جعل الإبستيمولوجي المعاصر يمتلك المقدرة على استنتاج الخاصية التركيبية للفكر الموضوعي، وبممارسة التحليل النفسي على المعرفة الموضوعية تؤكد أن «لا توجد حقيقة بدون خطأ مصحح، إن بسيكولوجية الموقف الموضوعي هي تاريخ أخطائنا» (باشلار، تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، 1982، صفحة 191)، يركز باشلار على التحليل النفسي لا على الفلسفة، لكون الفيلسوف يكون هو موضوع الدراسة والدارس، مما يولد لديه عائق ابستيمولوجي، يحد من بلوغ الموضوعية، بوقوعه في الخطأ، لكونه يخضع لنسقيته. أمَّا عالم النفس يخضع المعرفة العلمية للتصحيح أخطائنا. يضع لنا باشلار مصادرتين أبستيمولوجيتين للوقوف على موضوعية الفكر العلمي المعاصر:

1-ضرورة القطيعة بين المعرفة العلمية والمعرفة العامية، فالفكر قبلعلمي الذي تكون منذ عصور ليس بالسهل أن يتنازل عن أفكاره ومعتقداته التي اعتبرها ثوابت لا تتغير، بل سيفجر طاقات نفسية شخصية للدفاع عنها وإعادة تميزها المسلوب منها حيث أن الفكر فبعلمي يحاول دائماً تطوير النزعة البسيكولوجية التي تولد عند الأخر الحقيقة والإقناع (باشلار، تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، 1982، صفحة 192)، وهذا ما يجعله – الفكر قبلعلمي- يجانب علم النفس ولا يبلغ الموضوعية، كما أنه لا يمكن التدليل على الموضوع بأنه هدف مباشر، فالاتجاه صوب الموضوع لا يعني بالضرورة بلوغ الموضوعية المنشودة. أمَّا الفكر العلمي ينطلق من الشك في المكتسبات المعرفية، والتصورات التي يمتلكها، يكون قد وضع أولى خطواته على سلم الموضوعية العلمية، فالعملية الشّكيّة التي يمارسها الفكر العلمي، تقدم عملية تحويل من الموضوع المباشر إلى الموضوع غير المباشر. فنسق الموضوع المتزايد هو نسق بناء أدوات متصاعد، نحو الموضوعية.

2-كل موضوعية تتطلب الاعتراف الصريح بأخطائنا الفكرية وبعجز معرفتنا قبلعلمية، عن تفسير مستجدات الفكر العلمي المعاصر، وضرورة الخروج من دائرة الوهم والزيف التي أوجدنا أنفسنا فيها بتبني معطيات مسبقة ورثت جراء بيئة اجتماعية، ممَّا ولدت لدينا أفكار مزيفة، حتمت علينا ضرورة تنقيتها، ولا يتأتى هذا إلا بالتحليل النفسي الجماعي لا الفردي، يقول باشلار في هذا الصدد: «...ولأجل هذه البيداغوجية النقية قد يلزم جمعيات علمية معقدة ومجمعات علمية تضاعف المجهود المنطقي بمجهود نفساني» (باشلار، تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، 1982، صفحة 194)، فالعملية التحليلية لأخطائنا إن مورست فردياً لا تجدي نفعاً بل قد تزيد من توهمنا ومن صلابة تمسكنا بأخطائنا، كما قد تكون هذه الأخطاء مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد. لهذا فالعملية التي يقوم بها الفكر العلمي الموضوعي، هي زعزعة معتقداتنا وعاداتنا، كما أنَّ التحليل النفسي يسهل عملية بلوغ الموضوعية. حيث أن كل اكتشاف يتوصل إليه الفكر الموضوعي هو على الفور تصحيح ذاتي لأفكارنا (باشلار، تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، 1982، صفحة 198).

4. الخاتمة:

ممَّا سبق ذكره، يتضح لنا جلياً أن باشلار يولي أهمية كبيرة للمنهج الفينومينولوجي، حيث يجعله قادر على دراسة الصورة الشعرية في كينونتها الخاصة، مع كل قطيعة عن أيّ كينونة سابقة، فمن خلال هذا المنهج نستطيع مقاربة الصورة الشعرية داخل وعيها الفردي وفي صورتها الحقيقية ومعطياتها الذاتية بعيداً عن كل تشيء يفقدها معناها الحقيقي وكينونتها .

لذا يؤكد باشلار على ضرورة حضور الوعي عند دراسة الصورة الشعرية، ولا يتأتى هذا الوعي إلاَّ من خلال القراءة المستمرة للشعر والشعراء .

وظف باشلار المنهج الفينومينولوجي لدراسة الصور الشعرية، كما وظف التحليل النفسي، إنَّ التوظيف الفينومينولوجي يختلف عن التوظيف السيكولوجي في مقاربة الظواهر الإنسانية، خصوصاً الشعرية منها، فهو لا ينظر إلى الظواهر والتجارب على أنَّها تجارب باثولوجيه، ولا يحفر في تاريخ الإنسان من أجل اكتشاف تلك العقد النفسية التي تسكنه، بل يجعل من هذه التجارب والذكريات كجزء من كينونة الإنسان.

قائمة المراجع:

1) G.Bachelard. (1932). *le Pluralisme Cohérent de la Chimie moderne.* paris: Librairie philosophique j.vrin.
2) Jung, C. G. (1964). *Dialectique du moi et de I' inconscient.* paris: Gallimard(Idées).
3) Pire, F. (1967). *De L'imagination poétique, dans l'œuvre de Gaston Bachelard.* Paris: librairie José corti.
4) الإمام ,غ .(2010) .*جاستون باشلار جماليات الصورة* .بيروت :دار التنوير للطباعة والنشر.
5) الكردي ,م .ع .(1998) .*دراسات في الفكر المعاصر :من الوجودية إلى التفكيكية* .الإسكندرية :دار المعرفة الجامعية.
6) أندريه ,ل .(2001) .*موسوعة لالاند الفلسفية*) .خ .أ .خليل (.Éd , بيروت :منشورات عويدات.
7) باشلار ,غ .(1984) .*العقلانية التطبيقية*) .ب .الهاشم (.Éd ,بيروت : مؤسسة الجامعة للدراسات والنشر.
8) باشلار ,غ .(1984) .*النار في التحليل النفسي*) .ن .خياطة (.Éd ,بيروت : دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.
9) باشلار ,غ .(1985) .*فلسفة الرفض مبحث فلسفي في العقل العلمي الجديد*) .خ .أ .خليل (.Éd ,بيروت :دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع.
10) بوخليط ,س .(2012) .*غاستون باشلار :مفاهيم النظرية الجمالية* . الأردن :عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.
11) ستور ,أ .(1996) .*العبقرية والتحليل النفسي* .الكويت :المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب.
12) سلامة ,ي .س .(2007) .*الفينومينوجيا :المنطق عند إدمون هسرل* . بيروت :دار التنوير للباعة والنشر.
13) عباس ,ع .ا .(1996) .*قراءة النص وجماليات التلقي :بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي* .مصر :دار الفكر العربي.

14) غاستون باشلار. (1982). *تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية*. (خليل أحمد خليل، المحرر) بيروت: المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر.

15) غاستون باشلار. (1991). *شاعرية أحلام اليقظة: علم شاعرية التأملات الشاردة*. (جورج سعد، المحرر) بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات.

16) فرويد ,س .(1962) .*تفسير الأحلام*) .م .صفوان (.Éd ,مصر :دار الهلال.

17) فرويد ,س .(1982) .*الأنا والهو*) .م .ع .نجاتي (.Éd ,بيروت :دار الشروق.

18) ك ,ي) .د ت .(*البنية النفسية عبد الإنسان*) .ن .خياطة (.Éd ,سوريا : دارا لحوار للنشر والتوزيع.

19) ك ,ي) .د ت .(*علم النفس التحليلي*) .ن .خياطة (.Éd ,سوريا :دار الحوار للنشر والتوزيع.

20) لطفي الشربيني. (د ت). *معجم مصطلحات الطب النفسي*. الكويت: مركز تعريب العلوم الصحية.

21) ميغان رويلي، و البازغي سعد . (2002). *دليل الناقد الأدبي*. المغرب: المركز الثقافي العربي.